عروسة النيل

الفصل الثالث عشر

ولمَّا فرغت باولين من وصف المحاكمة وما اقرَّ عليهِ القضاة من اعدام حيرام اخذ الغيظ من الطبيب كل مأخذ وقال لا خير لكِ في البقاء في هذا البيت فهو مغارة لصوص وملجا شهود الزور. وبينما هو يتكلم افاق رستم المجوسي وطلب ان يرى سيدهُ فقيل لهُ انهُ يريح منف الى الفسطاط ولا يعود الى الغد فجلس في سريرهِ واخذ يشتم الطبيب بالفارسية ويلعنهُ بصوت جهوري ردَّدت صداهُ انحاء البيت فدنا فيلبس منهُ يريد تغيير ضماد جرحهِ فامسكهُ رستم بذراعيهِ وحاول جذبهُ الى الارض وهو يزأر كالاسد فنادى فيلبس الممرضة وامرها باستدعاء اثنين من العبيد ثم القى يديهِ على كتفي المريض ودفعهُ عنهُ بعنفٍ فطرحهُ على السرير وقبض على اصابع يديهِ وضغطها شديدًا حتى اعادهُ الى مكانهِ وكانت باولين في خلال ذلك تتأمل الاثنين وهي تعجب بقوة الطبيب وثبات جأشهِ على دمامتهِ ونحولهِ وقلبها يخفق لئلاَّ يتغلب عليهِ ذلك الجبَّار فيصرعهُ فلمَّا انجلت عزائمهُ وثاب الى السكينة ناداها فيلبس والتمس منها ان تأتيهُ بحبل او نحوهِ ليشدَّ وثاقهُ فنزعت قناعها وحلَّت نطاقها وعقدتهما ثم اعانت الطبيب على ربط يديهِ. وعادت الممرضة بالعبدين فامرها فيلبس بملازمتهِ ومنعهِ عن الوثوب من سريرهِ ثم فتح صندوق الادوية واشار الى زجاجة فيهِ فتناولتها باولين وسكبت منها جرعة مزجتها بغيرها بحسب ارشادهِ وسكبتها في فم المريض ولم يلبث الدواء ان فعل فعلهُ حتى قام فيلبس فغسل الجرح وابدل الضماد وافاق ماندافي على الجلبة وبدا الخوف والاضطراب في وجهها فاخذت تسأل الممرضة عن الكلب العقور فاسرعت اليها باولين تلاطفها وتسكن مخاوفها الى ان عاودتها السكينة والراحة وسارت تجيب اسئلتهم جواب عاقل فاستدلَّ الطبيب من ذلك على ان الجنون فارقها وكان كلامها عذبًا لطيفًا شجيًّا فنبهت باولين الطبيب اليهِ فقال

— ليس في العالم مكان تتجلى فيهِ طبيعة المرء على انها كفراش السقام فقد هجمت هذه الفتاة في ساعة جنونها على ابن المقوقس تريد قتلهُ لكنَّ المرض ازاح اللثام عن رقتها ولطفها الاصليين اما رستم فجبار عنيد لكنهُ شهم صافي النية

— وما دليلك على شهامتهِ وصفاء نيتهِ

— لقد دافع عن نفسهِ دفاع الابطال لكنهُ لم يخدشني ولا حاول عضي كما يفعل الجبناء ولو لم تشدي وثاقهُ لتغلَّب عليَّ

— لا إخال ذلك ممكنًا فانت شديد العضل على نحولك

— لا فضل لاحد في قوته البدنية ومن وُلد من ابوين سليمين وكان نقيَّ الدم سليم العظم كامل البنية وروَّض اعضاءهُ كما فعلتُ في شبابي ولم ينفق قواهُ في المعاصي ظلَّ قويًّا حياتهُ بطولها على انَّ صراعنا الآن اضعف يديَّ وارخى مفاصلي وكاس خمر تنعشني وترد قوتي اليَّ. فاسرعت باولين الى الغرفة الملاصقة واتت بزجاجة خمر وملأت كاسًا وناولتهُ فشربها دفعةً واحدة ثم سكبت كاسًا اخرى وناولتهُ واذا بنفورس داخلة عليهما وذلك انها كانت قائمة على خدمة زوجها فسمعت الجلبة فسألت عن الخبر فقيل لها انَّ باولين والطبيب في غرفة الضيوف فاسرعت اليها وسارت توًّا الى المرضة فسألتها بالايجاز عمَّا تعرفهُ ثم عطفت الى غرفة الجلوس فرأت الطبيب والكاس في يدهِ وباولين امامهُ فبدا الغيظ في وجهها وامرت باولين بالانصراف الى غرفتها قائلة يكفيك اليوم ما اتيتهِ من الافعال المغايرة للحشمة واللياقة فقد تجاوزنا عنها جميعًا فكان الاجدر بكِ ان تلتمسي العزلة في تخدعكِ وتطلبي الصفح من العزة الالهية عن ذنوبك لا ان تقفي هنا تسقي الخمر لهذا الرجل . فامتقعت باولين وساءها ما اثبتت بهِ فاجابت

— لا يخفى عليَّ غرضك من طردي فلم يكفك ان اوغرت صدر زوجك عليَّ وهو نسيبي وسندي حتى اتهمتني بافظع التهم الآن فطردي من هذا المكان الخاص بالمرضى بمثابة طردي من بيتك الذي اصبح جحيمًا لي بفضل دسائسك ودسائس ابنك . فصاحت نفورس

— انا وابني افهذا جزاء المحسنين فقد اتخذناها لقيطة وآويناها شريدة وعاملناها كابنة لنا وما ادَّخرنا وسعًا في العناية بها وانفقنا عليها المبالغ الطائلة وهي الآن . . . . . فاجابت باولين

— اما الآن فاني اعلن كفتاة في سن الرشد حرة التصرف انني سابرح هذا البيت غدًا ولو أدى ذلك بي الى التسوُّل فيهِ لقيت صنوف الاهانة وفيهِ حكم عليَّ وعلى تابعي ظلمًا وفيهِ سيقتل بريء . فقالت نفورس

— وفيهِ لقيت خير المعاملة ولم تنالي العقاب الذي تستحقين بعد ان ادخلتِ لصًّا اليهِ وصرحتِ على رؤوس الاشهاد ان ابن خالك ومضيفك وحاميك قاضٍ ظالم

— نعم ولا ازال اقول ما قلت فقد تجاوز حدَّهُ في الظلم واغرى تلك الفتاة التي دبرتها عروسًا لهُ على شهادة الزور وعندي امور كثيرة تدل على جنايتهِ ولكن اعتباري لزوجك يمنعني عن افشائها حفظًا لكرامتكم. فقالت نفورس

— هل سمعتم يا قوم فقد اصبح الجاني شاكيًا يمنُّ علينا بالرحمة والعفو ولكني سأُرغمك على الافصاح عمَّا تضمرين

— اذا لم تسكني حدة لهجتك فستضطر حفيدتك الى المجاهرة بالحق على الملإ فضحكت نفورس وقالت

— الم يكفك انك اتخذت غرفة المرضى حانة حتى عملت على ايقاع الاذى والعار باهل هذا البيت الصالح فاذهبي الى حيث تشائين فاذا لقيتك بعد ظهر الغد في البيت طردتك منهُ جبرًا فنفسي تعاف رؤيتك وقد اصبحت ينبوع مصايب وشقاء لنا فاذهبي لاني اخاف على مابقي لنا من الجواهر . اما انت يا فيلبس فزوجي في حاجة شديدة اليك وانت اعلم الناس بسخائهِ فالاجدر بك ان تتروَّى وتتبصر في ما تفعلهُ. فقاطعها الطبيب وقال بترفع

— لقد جهلت طبعي او تجاهلتهِ فزوجك عندي في المقام الاسمى ومتى دعاني الى خدمتهِ فاني ألبي الدعوة لكني لن ادخل غير مدعوٍّ الى بيت يداس فيهِ الحق وتهان الطهارة. تفرسي فيَّ فقد نجَّس اينك مجلس القضاء ودم حيرام البريء على رأسهِ فاحرصي على زمرُّداتك ماشئت فباولين لن تمسَّها وشهامتها وكرم محتدها يمنعانها عن ان تبوح باسم السارق الذي يجب ان يزج في اعماق السجون فاعلمي الآن ان خطابك هذا قطع جميع ما بيننا من الصداقة وقد صرت منذ الساعة لا اريد ان ارى وجهك الاَّ بجانب سرير زوجك حين يدعوني اليهِ

فنزل كلامهُ عليها كالصاعقة لانها كانت من اشدّ الناس احترامًا لهُ تعلم حسن طويتهِ وسعة معارفهِ فضلاً عن لزومهِ لزوجها وكونهِ انقذ حفيدتها من الموت فشقَّ عليها ان تخسر صداقتهُ لها وخدمتهُ الجزيلة الفائدة لأهل بيتها واحسَّت بما كان يمازج كلامهُ من الاحتقار لها والانتصار لباولين تتنازعها الغيظ والقهر وجرت الدموع من عينيها ثم قالت

— أفأنت ايضًا يا فيلبس تولي وجهك عني بعد الذي شهدتهُ من اخلاصي لاهل بيتي وعنايتي بهم زوجة صادقة امينة مقيمة على ولاء زوجها في السرَّاء والضراء واماًّ حنونًا لا تشغلها الملاهي والملذات عن واجباتها وسيدة تعتني بعبيدها واتباعها فهل تبدلتُ اليوم الى هذا الحدّ حتى تقول فيَّ ما قلتَ وتضنّ عليَّ بصداقتك لاجل هذه الفتاة فاجاب الطبيب

— ان فيكِ داءً عياءً وهو هذه البغضاء التي دخلت قلبكِ كلصٍّ وجرت في عروقكِ فافسدت دمكِ ودفعتك الى اساءة هذه المسكينة المثقلة بالاحزان فكنت في عملك هذا كمن يلقي العثرات في سبيل اعمى ليوقعهُ فاذا كان لكلامي شيء من التأثير فيكِ فاسأليها الصفح عما اصابت منكِ من الاضطهاد

وكانت باولين ترقب الطبيب اثناء كلامهِ فلما فرغ وقفت لتدنو من زوجة خالها اماَّ هذه فقد كان في صدرها شبه عاصف فشعرت انها اساءت الى باولين مدة اقامتها في بيتهم وخامرها

الريب في مسارق الزمردة وادركت انها تسرّ زوجها سروراً عظيماً اذا استطاعت اقناعها بالبقاء عندهم لكنها ذكرت ما نالها وابنها من كبرياء باولين ورأت من الذلّ ان تنزل نفسها منزلة المخطيء امام فتاة وبينما هي كذلك سمعت رنّة الطاس الفضي اشارة الى ان زوجها يدعوها اليه فتقدمت الى باولين وقالت بصوت خافت

— هذه يدي وقد كان من الواجب عليّ ان احسن اليكِ لكنك رفضتِ حبي ويشهد الله انني كنت قد اعتمدت على اتخاذكِ ابنة لي ولكن ما فات فقد فات . فقبضت باولين على يدها قبضة كاره ثم قالت

— سنفترق اذًا على صفاء فائذني لي غدًا ان اودع خالي وماري

— علامَ تبغين الذهاب فبقاؤكِ معنا احبّ الامور لديّ الآن ولا اظن خالك يسمح بذهابكِ لما تعلمينهُ من حبهِ لكِ

— لقد كان لي بمثابة اب وبودّي لو استطعتُ ملازمتهُ الى النهاية ولكني قد عزمت على الذهاب

— ولو توسّل خالك اليكِ كما اتوسل

— لن يغيّر ذلك شيئًا من عزمي

— ولكن اين تجدين منزلاً لائقًا بكِ تنزلينهُ . فاجاب الطبيب

— سأنظر في ذلك وارى ايتها السيدة ان انفصالها عنكم خيرٌ لكم جميعًا لكني لا ازال آمل انها تبقى في منف ولا تصرّ على مغادرتها

ولمّ لا تبقى في بيتنا ففتح سفرًا جديدًا من الحياة . فهزّت باولين رأسها ثم سمعوا رنة الطاس الفضي يقرع ثالثةً فاسرعت تفورس الى زوجها ولما غابت تنفست باولين طويلاً وقالت

— حمدًا لله الذي ختم على شفتيّ فلم ابح بعلة ابنها وارى فيّ الآن نشاطًا جديدًا بعد ان عزمت على مفارقتها وترك منف . فقال الطبيب

— اتتركين منف ايضًا

— نعم واذهب الى سورية او بلاد اليونان فابتعد عن هذه المرأة وابنها

— وماذا يحلّ بصديقكِ هذا

— سأذكر فضلك مدى العمر ولا انساهُ . ففحك وقال

— وهب النبطي عثر على ابيكِ فاين يلقاكِ

فبهتت ولم تحر جوابًا فاغتنم فيلبس فرصة ذهولها واخذ يسرد لها الادلة على وجوب بقائها في

منف الى ان قال واول واجب عليك السعي في اطلاق سراح مرضعك ثم رسم لها خطة تجري عليها دلّت على حكمته ودرايته وبعد حديث طويل سلّمت بالبقاء الموقت حتى تنجو المرضع ويعود النبطي . فاخبرها انهُ دبّر لها مسكنًا لائقًا في بيت يوناني صديق لهُ وهو رجل كريم الاصل حسن السمعة ثم ودعها يريد الانصراف فقالت

— غدًا تبتدئ حياتي الجديدة وستكون بفضلك خيرًا من القديمة ان شاء الله

الفصل الرابع عشر

وفي صباح الغد جلست ماري حفيدة المقوقس ومهذبتها تحت جميزة في البستان التماسًا للبرودة وشرعت تكتب على لوحها الوصايا العشر نقلاً عن كتاب يوناني ولم يطل بهما المقام حتى تغلّب الحرّ وارتج الازهار على المهذبة فنعست ونامت وانقطعت ماري عن الكتابة وجرت الدموع من عينيها كالمطر فصارت تارة تحدق في الفضاء وتارة تعمد الى لوحها فتكتب عليهِ اسم باولين وتتعبهُ باحبّ النعوت اليها وبينما هي كذلك طالعت عليها كاترينا وعلى وجهها امارات الغم وهي تسحب رجليها سحبًا فما دنت من ماري حيّتها فلم ترد التحية بل احنت رأسها فقالت كاترينا

— سمعتُ ان جدّك في حالة الخطر

— أصحيح ما تقولين . قالت هذا وعاودت الكتابة

— نعم واوريون لا يفارقهُ وقد بلغني ان باولين ستترك بيتكم ايضًا

فأومأت ماري بالايجاب وعاودت البكاء

— اراكِ تصدين عني كأني ارتكبت وزرًا فافعلي ما تشائين ولكني لا اصبر على هذه الفظاظة . وحينئذٍ افاقت المهذبة فسمعت قولها فمدّت ماري ووبختها قائلة

— اكذا تعاملين السيدات اللواتي اكرمنكِ

— واين السيدات

— الا تبصرين فما هذه الغلظة واين الآداب اليونانية التي تلقيتها فكاترينا سيدة لا طفلة مثلك فاطلبي الصفح منها

— أنا . ثم نهضت من مكانها وقالت لستُ من اليونان فاعلمي انني لا اطيقها ولا ارغب في مكالمتها . فصرخت المهذبة

— امجنونة انتِ ثم ارادت القبض عليها فجرت ماري امامها وجرت كاترينا وراءها حتى ادركتها فامسكت يديها وقالت

— لولا انك ابنة صغيرة لضربتكِ فقالت ماري الاولى بكِ ان تدفني نفسك في التراب نعم ان عمري عشر سنوات لكني افضل السجن مع حيرام على فعل ما فعلتِ امس . فاصفرَّت كاترينا وقالت

— او تستطيع طفلة مثلك ان تدرك هذه الامور

— تعيرينني بالصغر كأنك نخلة باسقة فبعد سنتين اصير اطول منك

فاستشاطت كاترينا غيظاً ورفعت يدها فلطمتها لطمة عنيفة . اما ماري فوقفت جامدة كالصنم ثم دارت ومشت على مهل نحو الجميزة وكاترينا ترقبها وقد اغرورقت عيناها بالدموع وعلمت ان ماري مصيبة في ما قالتهُ وادركت انها اعتدت عليها فتبعتها من بعيد كما تتبع الجارية سيدتها حتى بلغتا الجميزة فدعتها باسمها فلم تجب فدنت منها ولمست كتفها وقالت بلطف سامحيني فقد اضعتُ رشدي وانتِ تعلمين ان قصري من الله فاجابت ماري

— لقد غضبت فلطمتني ولو فعلتِ ذلك امس مثلاً لضحكت او لضربتكِ كما ضربتني اما اليوم فقد شعرتُ كأن عبداً اسود وضع يدهُ على وجهي فلستِ اليوم ما كنتِ قبلاً فقد تغيَّرت مشيتك وتبدَّلت هيئة وجهكِ ولم يعد كلامكِ عذباً وفارقكِ الظرف واللطف والسبب انكِ اخطأتِ امس خطية كبيرة

— فقالت كاترينا لا تجوري في حكمكِ عليَّ يا حبيبتي فقد يحدث انني لم اصرّح امام القضاة بجميع ما اعرفهُ ولكن اوريون خطيبي هو الذي .....

— اقتادك الى الكذب فانظري اليهِ اليوم فقد كان طول عمرهِ فرحاً مسروراً وهو الآن مثلكِ غمًّا وكآبةً . وحينئذٍ قاطعتها مهذبتها وامرتها ان تعود الى دروسها فامتثلت وبينما هي كذلك دنت منها كاترينا وهمست في اذنها قائلة ان اوريون لا يكذب ولست اتذكر تماماً ما اذا كان العقد خلواً من الحجر الكريم او لا . فالتفتت اليها ماري وقالت بالقبطية

— الا تتذكرين الم تري العقد كما رأيتهُ او لم يعلق مكان الزمردة منهُ في ثوبكِ فقد كذبتِ حين أدَّيتِ شهادتك في المجلس تعالي واقرائي الوصايا العشر التي انزلها الله على موسى اقرائي لا تشهد على قريبك شهادة زور وقد قال لي القسّ ان شهادة الزور خطية ميتة لا تغفر الاَّ بالتوبة ومع انكِ تعلمين ذلك كلهُ فقد تجرأتِ على شهادة الزور فجررت الويل والنقمة على الابرياء . فصبغ الحياء وجه كاترينا وقالت

— اللوم كل اللوم على اوريون فهو الذي بدَّل اقتناعي ولما رأيت باولين اعترافي غيظ شديد حتى اوشكت ان اقتلها

— أتقتلين باولين بعد ان كنت تدّعين حبها

— نعم فقد كنت احبها ولكني رأيتها في المجلس مثال الكبرياء والعظمة على انك لا تفهمين هذه الامور

— وعلام تتهمينني باليلادة الى هذا الحد فانت تحبين اوريون ولما خشيت ان تغلبك باولين بجمالها اخذتك الغيرة ولا يخفى عليكِ انني واقفة على اخبار اوريون واعلم ان جميع النساء مفتونات بهِ ولهذا قطعوا اذني ماندائي وقد حدثني الجواري بحديثهِ في القسطنطينية ولو شاءت باولين ان تستميلهُ اليها لكفّ عن النظر اليك فشهادتك الزور ستؤول الى قتل حيرام والى انفصال باولين عنّا فلا اعود اراها ابدًا ابدًا ابدًا وهذا ما يكاد يمحق قلبي. قالت ذلك واجهشت بالبكاء والعويل فانحنت كاترينا وطوقتها بذراعيها وقالت وهي تبكي

— سامحيني يا حبيبتي ماري فقد قاسيت عذابًا اليمًا من جرّاء عملي على ان شيئًا غريبًا يشي بصري امس فاقتادني اوريون الى الاثم وانا اجهل غرضهُ لكني احبهُ وانا خطيبتهُ امّا الآن فساحاول ان اسلوهُ واترهب في احد الاديرة او اطرح نفسي في النيل لكني لن اتزوجهُ بعد الذي جرى ويشهد الله انني مع ذلك احبهُ حبًّا شديدًا

وبينما هما كذلك جاءت باولين ووراءها نفر من الاتباع يحملون امتعتها فرأت ذلك المنظر المؤثر وسمعت كلام كاترينا فادركت ما جرى بينهما ولمّا لم تشأ ان تسترق السمع نادت ماري باسمها فاسرعت هذه اليها وارتمت عليها وهي تبكي فقبّلت باولين وجهها وشعرها ثم بكت وقالت الوداع يا حبيبتي فقد قضي عليّ ان اغادر هذا البيت فلا يبرح اسمي وحبي من بالك واعلمي انني اشد الناس صداقة لك . فتوسلت ماري اليها ان لا تفارقها وان لا تتخلّى عنها وبكت بكاء مرًّا. فعجبت باولين لاخلاصها وشدّة حبها ثم حيّت المهذبة ولمّا ارادت ان تودع كاترينا انطرحت هذه عند قدميها واخذت تبكي وتقبل يديها وتطلب اليها ان تتجاوز عن اساءتها ثم اعترفت بذنبها فانهضتها باولين وقبلتها قائلة ليس الذنب ذنبكِ وقد غفرت لكِ. ولما بلغت السفينة اذا باوريون وفي يدهِ باقة من الازهار وكان قد حاول لقاءها مرتين ذلك النهار فلم يفلح فتقدم اليها وقال لا خوف على حيرام فلن يمسّ بسوء ثم طلب اليها ان تأذن لهُ بكلمتين فابت ان تجيبهُ وسارت تريد السفينة فمدّ ذراعهُ ليسندها فتناولت يد الطبيب ونزلت فتبعها الى السفينة وقال لها

— ان تعيساً يطلب منكِ الرحمة فقد اعترافي الجنون امس وانا احبُّكِ

— لا تزد عليّ فكلامك يسوءني

— ولكنّ ذهابك يحزن ابي وهو كما تعلمين مريض مثقل اليس لكِ كلام انقلهُ اليهِ

— ساجد رسولاً غيرك

— وحب انهُ سألنا عن سبب انفصالك عنّا

— امك وفيلبس بخبرانهِ

— ولكنهُ وصيُّك واموالك في يديهِ

— لا خوف عليها من الضياع

— ولكن قد يحزُّ بهِ المكروه لا سمح الله

— حينئذٍ اطلب اعادة اموالي على يد وصيٍّ آخر

فاشتد باوريون الحنق ورمى بالازهار الى النهر ثم وثب الى الشاطئ فدنت منهُ ماري وقالت لا تحزن ياعماه فانا اعلم ما بك

— وما ذاك

— اخطأتَ انت وكاترينا خطأً كبيرًا بشهادتكما امس

— واين كاترينا الآن

— سمعتها تقول انها تحبك كثيرًا ولكنها لا تستطيع مقابلتك اليوم فقد اخذ الحزن منها كل ما خذ

— لكنها في غنى عن تكليف نفسها هذه المشقة وذلك الحزن فالذنب ذنبي وعاقبتهُ عليَّ فعودي يا حبيبتي الى دروسك ثم قبَّلها ومشى في البستان حتى بلغ شجرة كبيرة فاسند ظهرهُ اليها واخذ يعيد في مخيلتهِ حوادث ذينك اليومين فتنازعتهُ الافكار والاحزان واشتدَّ بهِ القلق فاسف على خسارة الفتاة التي احبها وندم على ما فرط منهُ مما ادّى الى انفصالها عنهم الى ان قال في نفسهِ لقد اخطأتُ سيفي تسليبي قيادي لامي وعقد خطبتي على كاترينا وقد عزمت الآن على وضع حدٍّ لهذا الاثم وسانطرح على قدمي باولين واقصُّ عليها قصتي فاعترف بذنبي ومتى اتضح لها صدق طويتي واخلاصي وعلمت بانني فعلتُ ما فعلتُ غير متعمد واني اتهمتها بمشاركة السارق في ساعة ضياع رشدي رضيت عني وعاودها حبي وحينئذٍ تعود اليَّ تلك الصفات التي ورثتها عن اسلافي على اتمها وتصبح حياتي ذات قيمة في عينيَّ ولا تعود حملاً وان مجرَّد تفكري بها يسمو بآمالي ومطالبي فماذا يكون شأني اذا احبتني وقبلتني زوجًا لها

وبعد ان قضى ساعة كذلك سار الى البيت فلقي القهرمان وعلم منهُ بانَّ اباهُ نائم وانَّ علامات الانحلال بادية في وجههِ كما سبق الطبيب فانبأهم فامرهُ بارسال مركبتهِ واسرع جيادهِ لتاتي بفيلبس

الفصل الخامس عشر

ولمَّا وصلت باولين والطبيب الى مسكنها الجديد واستقرَّ بهما المقام عرَّفها باهل البيت ثم سار بها الى الغرف الخاصة بها لتراها فاعجبتها نظافة المكان وحسن ترتيبهِ ولم يكن الاَّ كلمح البصر حتى جاء رسولان يطلبانهِ وكان احدهما فتًى عربيًّا من القسطاط اتاهُ بكتاب من هاشم ينبئهُ فيهِ بانهُ مسافر الى جدَّة للاعتناء بابنٍ مريض ويوصيهِ خيرًا بشيخ قافلتهِ ومع الكتاب صرَّة مملوَّة دنانير امَّا الرسول الآخر فكان من بيت الوالي يدعوهُ الى الاسراع الى المقوقس فلبى الدعوة وركب المركبة فسارت بهِ الخيل تنهب الارض حتى اذا دخل على العليل ورأى وجههُ علم أنَّ اجلهُ قد دنا وكانت السكتة قد عقدت لسانهُ فانهضهُ وامر الممرِّضة بان تضع خرقًا مبلولة بالماء على رأسهِ وعنقهِ ثم فصدهُ وبعد هنيهة افاق وفتح عينيهِ وقال بصوت خافت ناولني حبتين يا فيلبس فنعل وبعد ان بلعهما اغمض عينيهِ ثم عاد ففتحهما وقال يا اوريون لقد جاءت الساعة فادعُ المطران ليزِّ ودني بالاسرار المقدسة فخرج اوريون الى القاعة وكان المطران ورجال الكهنوت بالانتظار فيها فدخلوا وصلُّوا عليهِ ثم ناولوهُ الخبز فلم يستطع بلعهُ فتناولهُ اوريون بدلاً منهُ فقال المقوقس

— ليكن الله معك يا ابني ثم طلب الاسرار ثانية فناولوهُ ايَّاها فجرع الخمر وابتلع شيئًا من الخبز فاخذ المطران يخاطبهُ بكلام التعزية ويستتيبهُ ويسألهُ المغفرة لاعدائهِ فاجاب غفرت لهم جميعًا حتى الملكين قاتلي ابنيَّ وبطريرك كنيستي

وعاد فيلبس الى عنايتهِ بهِ وبعد ساعةٍ رفع رأسهُ وقال

— ادعُ خاتمي يا اوريون والبسهُ وادعُ ماري وباولين فاودعهما فاجابت زوجتهُ

— لقد ارسلنا من يا قي بماري اما باولين فقد تركت البيت بعد ما جرى امس وقد كلفتني ان ابلغك سلامها وشكرها لك . فسكت ثم قال كيف اذنتم لها في الانصراف فهي اشرف النساء واجملهنَّ لقد اخطأتم في ما فعلتم . فطلب اوريون الى الطبيب والممرضة ان يتنحيا عنهم فلما خرجا قال

— صدقت يا ابي فباولين اجمل النساء واشرفهنَّ فهل توافق على زواجي بها

— نعم يا ابني فبركتي عليكما ولو سلَّمتْ قيادها الى خالها لانقضى الامر على ما اشاء . . . . انها دافعت عن تابعها دفاع الابطال . . . لمَ لم تأتوا بها .

— ارادت ان تودعك فالفيناك نائمًا ولم نشأ ان نزعجك

ان قضية الزمردة عجلت في ذهابها ولكنها غير ملومة فحيرام فعل ما فعل بدون علمها على أن طيب عنصرها ... وتعلقها بوالدها .... وانتِ يا نفورس يا رفيقة العمر .... شكرًا لكِ على عنايتك بي وحبك لي .... لا تغيظي باولين بعد .... باركي اقترانهما . فبكت زوجتهُ وقالت

— سافعل ما تريد ولكن ما تفعل بمعتقدنا وايماننا وكاترينا المسكينة

— كاترينا ... ابني يتزوج حما ... حما ... الماء . ثم جمع قواهُ وقال بصوت ضعيف انا جريج بن المقوقس العظيم واسلافي واولادي كاشجار النخل والجميز فهل تطعمُ هذه الاشجار بورق الحنطة اذًا اي انحطاط يحلّ بنسلنا لكن باولين ارزة لبنان ....

— ولكن ما العمل وهي ملكيَّة

— نعم نعم حافظوا على معتقدنا ولكن باولين ارزة لبنان .... ثم اعياهُ النطق فالقى رأسهُ على الوسادة ودعوا الطبيب اليهِ فاسرع وسقاهُ شرابًا منعشًا فافاق وقال

— لقد عبقت رائحة المسك في البيت رائحة ملاك الموت وبعد هنيهة قال كمن يخاطب نفسهُ نعم ان الروم ظلموا شعبي فاضطهدوهم وداسوهم امَّا العرب فاهل عدل واحسان وفضلاً عن ذلك فلم يكن ردُّهم عن البلاد في طاقتي آه لقد بردت رجلاي وانا احبُّ البرد وانت يا اوريون فحافظ على مذهبك ودينك ولا يغرنَّك حب العظمة والمجد على اطراحهِ واعتناق غيرهِ امَّا باولين .... سرْ في الطريق الذي تختارهُ لنفسك وقد تركتُ لك ثروة طائلة وكنت لك ابًا حنونًا ولأُمك زوجًا امينًا وفوق ذلك كلهِ فقد كنتُ قاضيًا عادلاً ويشهد الله عليَّ انني لم احد عن الحق بحسب ما بلغتهُ مداركي القاصرة فكان الغني والفقير في عينيَّ سواء . ثم انقطع عن الكلام واسلق على فراشهِ وحينئذٍ ادخلوا ماري حفيدتهُ فركعت امامهُ وقبلت يديهِ وهي تبكي ثم صاحت

— لا تفارقنا يا جدَّاهُ وابقَ معنا

— اوَّاهُ يا حبيبتي لقد كنت اودّ ذلك من صميم قلبي لاقوم على العناية بكِ ولكن لنفذ المقدور وانا الآن على عتبة القبر

— لا لا فانا اصلّي ويستجيب الله صلاتي فيشفيك

— هذا امر الله فهل جئتِ يا باولين فقلبي يحدثني انها انفصلت عن بيتنا مغتاظة . فقالت

— انَّ هنالك امرًا يجب ان تطَّلع عليهِ يا جدَّاهُ فباولين لم تكذب لكنها اعترفت بالحق وليس حيرام السارق فان العقد الذي رأيتهُ ورأتهُ كاترينا كان خلوًا من ذلك الحجر الكريم

ولكن كاترينا شهدت شهادة زور وحكم القضاة على حيرام اعتماداً على شهادتها ولا ادري ما الذي فعلهُ هذا المسكين حتى اغضب اوريون فاصرَّ على معاقبتهِ والذي اعلمهُ ان باولين وحيرام بريئان ممَّا اتهما بهِ

وكان اوريون اثناء كلامها راكعاً بجانب السرير وعباراتها تقع في نفسهِ كطعنات الخناجر فحدثتهُ نفسهُ غير مرَّة ان يدفعها من مكانها ويدَّ فاها لكن الدهشة والغيظ قيَّدا يديهِ فلما فرغت التفت اليهِ ابوهُ وقال

— فقد حكمت محكمتنا حكماً جائراً اذاً فمن سرق الزمردة العلَّك . . . . القطيف . . . . الزمرّدة . وكانَّ صاعقة انقضَّت على اوريون في تلك الساعة فوقف وقال

— نعم يا ابتاهُ انا فعلتُ وقد جرَّ عليَّ عملي هذا سلسلة من المصايب والاحزان لا اعلم اين تنتهي حقاتها على انهُ سيكون آخر ذنوبي. وكان يتكلم والبكاء يقطع الفاظهُ فجلس المقوقس وقد عاد اليهِ بعض قوتهِ وصاح

— انت السارق لقد نجست محكمتنا وجلبت العار على سلالتنا فاغرب عني فانت لص وقاضٍ ظالم وشاهد زور . أنسل مينا يرتكب وزراً كهذا . فلو كانت يداي شديدتين آ . . . ثمَّ اشتدَّ بهِ النزع فانطرح على السرير وهو يردّد كلمة " لئيم " وسمعت حشرجة في صدرهِ ثم فاضت روحهُ . فارتعد اوريون من هول ما جرى وحاول ان يوقظهُ ليعترف لهُ بتوبتهِ وينال غفرانهُ ثمَّ دخل الطبيب فوضع يدهُ على قلب المقوقس والتفت الى من حولهُ وقال هوذا رجل بارّ قد فارق ارض الاحياء

فشهق اوريون وانطرح على الارض وجثت امهُ بجانبهِ لتعزيهُ وتنوح معهُ امَّا هو فلم يكن ليتعزّى

الفصل السادس عشر

كان الطبيب قد سبق فانذر باولين بدنوّ اجل المقوقس فلما جاء الرسول يدعوهُ الى القصر قلقت وخشيت ان تتمّ نبوءتهُ لانها كانت تحبُّ خالها حبّاً شديداً وترجو لهُ طول العمر والسعادة. ورحَّب بها اهل المنزل وقابلوها بالرعاية والاكرام وكانت هيئة البيت تدلُّ على يسار صاحبهِ والبستان على شدة عنايتهِ بالازهار والاشجار وبينما هي تمشي فيهِ وقعت عينها على البستاني فاذا هو احدب ومعهُ نفر من الاولاد يساعدونهُ وكلهم مشوّه الخلقة ما بين احدب واعرج وكسيح

وكان البيت على مقربة من دير القديسة سيسيليا وهو الدير الوحيد لراهبات الروم الملكيين الذي ابقى عليهِ المصريون بعد غزوة العرب وذلك لان راهباتهِ اشتهرن بحسن عنايتهنَّ بذوي

الاسقام ومهارتهنَّ في التمريض هذا فضلاً عن الضريبة العظيمة التي كان الدير يؤديها الى مجلس منف ومع شدة كره المقوقس للمكيين لم يرَ بدًّا من الاحتفاظ به للاسباب التي اشرنا اليها ولئلاَّ تنتقل املاكهُ واموالهُ الى العرب اذا أقفل. وظلَّت الحال على هذا المنوال الى ان تربَّع بنيامين في دست البطريركية الاسكندرية فاراد الايقاع بالراهبات والاستيلاء على الدير واموالهِ فعارضهُ المقوقس فكان ذلك من اسباب النفور الذي تعاظم بينهما

في ذلك المساء سمعت باولين الراهبات ينشدن ترانيم الجنازة الشجية فظنت ان احداهنَّ انتقلت من دار الفناء الى دار البقاء لكنها ما عتمت ان سمعت النوح على الطريق والجسر (الكبري) ورأت النساء يسرنَ زرافات ناتحات معولات فخطر لها اذ ذاك ان مثل هذه المناحة العامَّة لا تكون الاَّ للمقوقس فارتعدت لهذا الخاطر واغرورقت عيناها بالدموع حزنًا على خالها وادركت ما كان لهُ من المنزلة الرفيعة في قلوب قومهِ حين ابصرت النساء يثرن التراب على وجوههنَّ ورؤوسهنَّ والرجال يقرعون صدورهم وكأن الدهشة عرت المدينة فلا ترى سوى وجوه كاسفة وعيون دامعة ولا تسمع سوى عبارات الاسف والرثاء وبعد ساعةٍ عاد الطبيب فاطلعها على الخبر اليقين الى ان قال وقد حدث حادث تبينتُ منهُ ان اوريون هذا ليس كما نظنهُ فيهِ صفات طيبة

— اذًا لقد خدعك ايضًا

— ذلك يصعب عليهِ ولكن لا يخفى عليك ان غرفة الموت من اقدس الاماكن ففيها تحلُّ الرهبة وتسود الخشية ومن يرَ ملاك الموت ماثلاً امامهُ يخلع عن وجههِ النقاب الذي يحجبهُ عادة فيبدو تحتهُ ما انطوى عليهِ من طيب الاخلاق وخبثها

— وهذا ما يدلُّ رأيك في اوريون فقد رأيت فيهِ تلك الساعة ما غيَّر ظنك في اللص وشاهد الزور والقاضي الجائر

— لا تركبي مطية المبالغة كما تفعل النساء فلم اقل ان ابن المقوقس ملاك لكنهُ اعرب اليوم عن قلب طيب وشعائر رقيقة وانا اعتبر هذين ولا ريب عندي في انهُ كان محبًّا لابيهِ هذا مع اعترافي بانهُ قد يأتي اكبر المنكرات نقد الفيتهُ بعد موت ابيهِ في اضطراب وجزع لا يحدثان في المرء ولا يبدوان فيهِ الاَّ اذا فقد احبَّ الناس اليهِ فقالت باولين

— هذا كلهُ تصنُّع. فقال

— وما غرضهُ من التصنع حيث لا يشاهدهُ احد كلاَّ بل هو على كثرة ذنوبهِ مملوء بالحب لابويهِ وهو ما يدفعني الى التصديق بانهُ لا يخلو من الشهامة وطيب الاخلاق. وبينما هما يتحدثان

دخل عليهما احد خدم البيت فاخبر باولين ان بالباب امرأة تطلب مقابلتها واذا بالمرضع داخلة فاسرعت الى باولين وضمتها الى صدرها وقبلتها وهي تبكي من الفرح ثم حدثتها بحديثها فقالت انهم احسنوا معاملتها في سجنها وان اوريون اخرجها منهُ اليوم معززة مكرمة فرأت في وجههِ سيماء الحزن وآثار البكاء والكآبة واستنتت الكلام الى حيرام فقالت ان اوريون اطلقهُ ايضاً من سجنهِ واجزل لهُ العطية واعادهُ وابنهُ الى دمشق بعد ان اركبهما جوادين كريمين ثم اخبرت سيدتها ان نيلس الخازن اتى معها وانهُ يريد محادثتها فامرتها باولين بدعوتهِ ولمَّا خلا المكان قال فيلبس

— لي كلمة اقولها لكِ فهل تسمعينها

— هات

— ان الحياة ليست مادية ادبها القدر لنا لنتلذذ بها لكنها واجب ينبغي ان نقوم بهِ بكل جهدنا وعلى كل واحد ان يتمجن قواهُ ومواهبهُ ويستعملها لنفع الناس فاذا فعل احسَّ بفرح ونشاط يكسبانهِ راحة الضمير فلا يعود يبالي بالموت فاذا ادرك اوريون ذلك ونشط الى القيام بالواجبات التي أُلقيت اليوم على عاتقهِ حق لهُ علينا التوقير والاكرام فقد انكسرت سفينتهُ اليوم كما قال التاجر العربي فلنرَ ما يكون من امرهِ . فقالت باولين

— ليت لهُ مرشداً مثلك يعينهُ امَّا انا فقد فصلتهُ اعمالهُ السيئة عني فلا سبيل الى مصالحتنا ولا اراني ارثي لهُ بعد الذي رأيتهُ منهُ فشكراً لك على ما بذلتهُ من المساعي في تدبير هذا المنزل حيث القى الراحة والسكينة

وعند ما قالت ذلك تنفَّس الصعداء وحاول ان يبوح لها بحبهِ فصرفتهُ عن هذا الموضوع قائلة اني اتخذتك صديقاً كريماً والصداقة اثمن من كل شيء واسابق على صداقتك ما بقيت لي الحياة

وعند ذلك عادت المرضع ومعها نيلس الخازن فوضع بين يديها مبلغاً كبيراً من المال وقال امرني سيدي اوريون ان آتيك بهذا المال عملاً بوصية ابيهِ فتقضي بهِ حاجاتكِ الآن امَّا ما بقي من ثروتكِ وهو الجزء الاوفر فسيعاد اليكِ بالحساب المدقَّق بعد دفن المقوقس. فذهلت باولين لما سمعت ذلك واستاء الطبيب فقد كان يخالها فقيرة معدمة فسرهُ ان يقوم على العناية بها والاهتمام بامرها فتبين لهُ انها تفوقهُ ثروة وغنًى كما تفضلهُ حسباً ونسباً. ولما فرغ نيلس من مهمتهِ حيَّاها وانصرف وتبعهُ فيلبس وبقيت باولين في البيت ومعها مرضعها وقد كادت تطير فرحاً لعودتها الى خدمة سيدتها

ستأتي البقية